الدوائر المغلقة للإدمان

تعتـــبر "الدوائر المغلقة" من المصطلحات الشائع استخدامها في علم الاقتصاد خاصة في مجالات التنمية والتخطيط حيث يقصد بالدوائر المغلقة أنها سلسلة مترابطة من عناصر معينة يمثل كل عنصر منها سبباً ونتيجة للآخر، ويؤدى ذلك إلى استفحال وتضـــخم مشكلة ما تتحكم فيها تلك العناصر جميعها بآلية حركتها (المتضافرة) بشكل يوحـــى باســـتحالة حـــل تلك المشكلة ومع هذا، فيرى الفريق المتفائل أو الإيجابي من الاقتصـــاديين أنـــه يمكن تحويل تلك الدوائر (السلبية) إلى دوائر عكسية (إيجابية) إذا نجـــح المسئولون في كسر الدائرة من (أضعف) مكان فيها أو تم فتح الدائرة من مكان أحد تلك العناصر التى يعتقد في أنها الأكثر سهولة في التحكم والهيمنة وإعادة التوجيه الإيجابـــي لهـــا بما يتوافق مع إمكانيات منفذى القرارات والموارد المتاحة لهم في ذلك الصـــدد. وتعـــد الدوائـــر المغلقة للفقر من أشهر ما قدم وتم بحثه وتحليله في المجال الاقتصادي التنموى.

وعلـــى اعتبار أن الإدمان هو المشكلة التى يتركز حولها الاهتمام الجاري، فسوف يتم عرض بعض الأمثلة على الدوائر المغلقة لتلك المشكلة بهدف محاولة تقديم صوراً مجزئة واضحة لمشكلة الإدمان ببعدها المزدوج كأسباب لحدوثها ونتائج لها، على أمل أن يبحـــث المسئولون عن أهم جوانب كل من تلك الدوائر التى يمكن البدء الفعلى في حـــل المشـــكلة مـــن خلالها وتغيير المسار السلبى والمدمر لها إلى مسار آخر تلقائى عكسي إيجابي.

صـــور إجمالـــية لأهم مسببات الإدمان ولأهم نتائجه: فقبل أن يتم رسم الدوائر المتخصصة، يفضـــل أولاً أن يتم استعراض شامل لأهم العناصر المرتبطة بمشكلة الإدمان حتى يمكن إعادة تصنيفها إلى مجموعات منتقاه، بحيث يمكن أن تمثل كل مجموعة منها دائرة مستقلة.

(١) **أهم العوامل المساعدة على الإدمان:** وقد تتفاوت تلك العوامل في درجة تأثيرها على المـــرء ودفعـــه إلـــى التعاطى (كخطوة أولى لا يقصد منها الاستمرارية) ثم الإدمان (كمـــرحلة مـــتقدمة تالـــية ينســـحب إليها المتعاطى بفعل قوى أكثر شدة وتلقائية في الجـــذب)، وقد يتضافر أكثر من عامل في التسبب في إيقاع المرء في مصيدة الإدمان المهلكـــة. وسوف نعرض تلك العوامل بدون تصنيف إلى مجموعات محددة حيث أن

هـناك تداخـلاً كبيراً في التأثيرات الناجمة، وتلك هى القاعدة التى يتم التركيز الحالي عليها في محاولات إعداد الدوائر المغلقة للإدمان.

مـن دراسة حول خصائص المتعاطين (إنعام عبد الجواد، ٢٠٠٠ صـ٣٤، ٣٥) يمكـن أن تستنبط بعض العوامل المساعدة على الوقوع في براثن التعاطى والإدمان وهـى الصغر النسبى للعمر أو عدم تمتع الشخصية بنضج وبوعى كافيين للتمييز بين الضـار والـنافع؛ الأمية أو تدنى المستوى التعليمي؛ الملل ووجود وقت كبير للفراغ؛ والقـيام بأعمـال شـاقة تتطلب يقظة لفترات طويلة مثل قيادة سيارات النقل لمسافات طويلة خاصة بالليل مما يدفع القائمين إلى محاولة تجديد نشاطهم بتعاطى المنبهات.

ومـن العوامل الأخرى التى تشجع على التعاطى رفقة السوء؛ حيث يحدث ذلك بصفة خاصـة فـي حالة ضعف الشخصية أو معاناة المرء من التفكك الأسرى أو يكون في سن مـراهقة. كمـا قـد يـتعاطى المـرء المواد المخدرة لمجرد القضاء على الملل والضيق وكمحاولة للترويح عن النفس وقد يتطور التعاطى إلى إدمان مع الإفراط في تناول العقاقير المسكنة والمهدئة حتى تحت الإشراف الطبى.

وفي دراسة تحليلية متعمقة حول المخدرات، أوضح المؤلف (مصطفى سويف، ١٩٩٦ صـ٧٥، ٧٦) أن كثير ممن يتعاطون المواد المخدرة لمواجهة آلام عضوية، أو للتغلب علـى متاعب وجدانية، أو للاعتقاد في فائدتها الذاتية آجلاً، كما قد يحدث ذلك على سبيل المشـاركة والمجاملـة في المناسبات الاجتماعية أو كنتيجة للشعور بالفشل أو الإحباط، أو كوسـيلة لاكتسـاب مشـاعر معينة أو كأسلوب مجاراة ومحاكاة للأصدقاء أو الجيران أو غيرهم ممن سبقهم في التعاطى والإدمان.

ولقـد أوضـح د/ عاطف عجوة (١٤٠٦هـ، صـ١٣٩- ١٥٢) أن الإقامة في أحياء تنتشـر فـيها الجـرائم والانحـرافات، ورفقة السوء أو جيرة المنحرفين وذوى السوابق والـتواجد فـي أسـرة ذات تـاريخ إجرامى يساعد بقوة على الانحدار إلى هوة التعاطى والإدمـان، ويؤكـد علـى أن هناك عدداً آخراً كبيراً من مسببات التعاطى والإدمان مثل البطالة والتفكك الأسرى والعزلة عن المجتمع والطموح المبالغ فيه الذي يصدم المرء على أرض الواقع فيصيبه باليأس والفشل.

ويفضـل الاكـتفاء بذلك القدر من المسببات والانتقال إلى عرض مقابل سريع لبعض الآثار الضارة والمدمرة للتعاطى والإدمان.

(٢) أهـم الآثـار الضـارة للإدمـان: يؤدى التعاطى والإدمان للمواد المخدرة إلى آثار بالغة الخطـورة على المتعاطى وعلى من يعيش معهم بنفس الدرجة تقريباً، كما أن تلك الآثار يمكن أن تسـاهم في تخريب وإيذاء الآخرين من المحيطين والمتعاملين مع الشخص بحكم الجيرة أو المشـاركة في العمل والمعاملات ويمكن أن تمتد تلك الآثار إلى المجتمع ككل بالتتابع. ويمكن اعتـبار تلـك الآثار بمثابة تكاليف مباشرة أو غير مباشرة تقع على عاتق الفرد المدمن وعلى عاتق المجتمع ككل.

ومـن الأمـثلة الـبارزة على الآثار الضارة للإدمان على المتعاطى، اعتلال الصحة النفسـية والبدنـية وضعف جهاز المناعة لديه ويصبح المدمن أكثر تكاسلاً وبطئاً في الإنتاجية وأكـثر عصـبية وتهـيجاً، كما أن جميع وظائف الجسم البصرية والسمعية والعقلية وغيرها تضـطرب وتظل حالته تتفاقم حتى يمكن أن ينتهى به الحال إلى الإصابة بالعمى وغيره، وفي حالـة الجرعات الزائدة يحدث له موت مفاجئ، وبطبيعة الحال فإن ذلك يعنى كثرة الحوادث، والشـجار مـع الآخريـن ويفسـر عمليات القتل اللامبرر التى أصبحت شبه ظاهرة في وقتنا المعاصر، وذلك بالإضافة إلى انخفاض إنتاجية المدمن وكثرة تغيبه عن العمل يقلل فرصه في التكسـب وتحسين المستوى الاقتصادي له ولمن يعول وفي نفس الوقت فإنه يؤدى إلى خسائر في مكان العمل، وفي النهاية يصبح المدمن مثالاً قائماً للخسارة الذاتية ولمن يعول ولمن يعمل لديـه أو معـه، وحتى أن كف بعد ذلك عن التعاطى، فسوف يتسبب في خسائر أخرى باهظة نتـيجة للتحمل بمستلزمات علاجه من الإدمان، وإجراءات تثبيته في مرحلة ما بعد العلاج من الإدمـان. وتوضـح دراسة للمجلس القومى لمكافحة وعلاج الإدمان (٩٨، صـ٣١) معلومة توضـح الأمـر أكثر سوءاً، حيث أشير إلى أنه قد ثبت أن العمال المهرة هم أكثر تعاطياً من العمـال غير المهرة، وأن عمال الصناعات الثقيلة أكثر إدماناً من عمال الصناعات الخفيفة مما يؤكـد علـى أن القطاعـات الاقتصـادية الأكثر أهمية هى الأكثر تضرراً من الآثار السلبية للإدمان.

ومن الأمثلة الأخرى على أضرار الإدمان، أن يستلزم زيادة الكوادر الأمنية والمجندين لمكافحـة تلـك الظاهـرة فما من شك في أن ذلك سيكون على حساب الحفاظ على نقاط أمنية أخرى خاصة أن تلك العمالة والمهام تتطلب تكاليفاً باهظة وأن ذلك يقتطع من مصادر تمويلية ضـعيفة فـي الأصل وعادة ما يكون ذلك على حساب مخصصات وبنود أخرى يتطلبها بناء المجـتمع والنهوض بمواطنيه كما أن تزايد ظاهرة الإدمان يصحبها زيادة المساحات المنزرعة بالمواد المخدرة مما يعنى تخصيص سلبى للموارد الطبيعية لخدمة المنحرفين بدلاً من استثمار

تلك الأراضى بشكل مشروع وإيجابي ومدر للدخل الذي يعمر بفائدته كل أفراد المجتمع وليس المنتجين المنحرفين.

وبعد التعرف على صورة سريعة لبعض الأسباب التى يمكن أن تشجع الإدمان ولبعض الآثار التى يمكن أن تنجم عنه، يتم الآن عرض لبعض الدوائر المغلقة للإدمان التى يمكن أن يتضح معها مدى التشعب والتشابك والتداخل للجوانب والأبعاد المرتبطة بمشكلة الإدمان الأخطبوطية والذي يمكن أن يدل -بدوره- على مدى خطورة تلك الظاهرة ومدى أهمية تضافر جميع الجهود الشعبية والقومية والعالمية من أجل التمكن من قطع أوصالها والقضاء التدريجي (الفورى) عليها قبل أن يزيد الأمر استفحالاً.

(٣) بعض النماذج للدوائر المغلقة للإدمان: كما تم إيضاحه من قبل، فالدائرة المغلقة للإدمان تعنى أن هناك عوامل تؤثر وتتأثر بالإدمان بحيث يمكن أن يعمل كل منها كسبب وكنتيجة لظهور وتفاقم مشكلة الإدمان. والفصل بين دوائر الإدمان في ذلك العرض لا يعنى انفصال كل مجموعة من العوامل المرتبطة بكل دائرة عن غيرها. فالإدمان ظاهرة اجتماعية عالمية، يحكمها عدد هائل من العوامل المتداخلة والمتشابكة -كما أشير تواً- إلا أن الفصل الحالى بين الدوائر المزمع عرضها كنماذج يتم بغرض توضيح أبعاد المشكلة ولبنات تكوينها بشكل أكثر تفصيلاً وتيسيراً على من يهمهم الأمر في اتخاذ القرارات والتدابير وتنفيذ الإجراءات والعمليات الأكثر دقة وفعالية في تقليص حجم تلك المشكلة بأقل وقت ومجهود وتكلفة ممكنة. وفيما يلي بعض الأمثلة على الدوائر المعينة.

أولاً: دائرة الجهل:

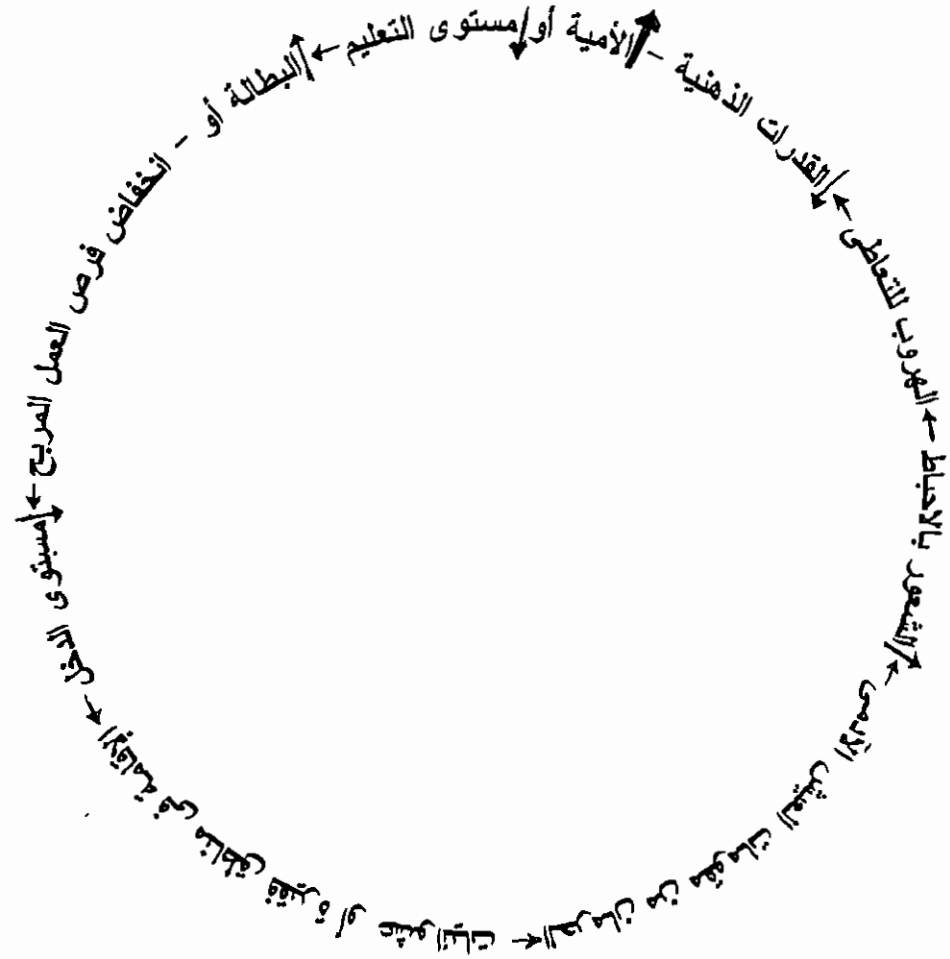

فمن شكل (١) يتضح أن الشخص الذي ينخفض مستواه التعليمي يكون أكثر عرضة للبطالة أو للعمـــل المتدنى الذي يؤدى إلى انخفاض دخله فيضطر للإقامة في منطقة فقيرة حيث يحرم من مقومـــات العيش الآدمي فيصيبه شعور باليأس والإحباط والفشل فيهرب للتعاطى والإدمان مما يـــؤدى إلـــى إصابته بالأمراض وانخفاض في القدرات الذهنية مما يؤثر سلباً على فرصته في التعليم.

ثانياً: دائرة سوء الرفقة:

فـــإن المـــرء إن كان يعيش في جوار مع المنحرفين أو يصادقهم في مكان الدراسة أو العمـــل، وكانـــت لديـــه ميول للانحراف فهو يحاول محاكاتهم في سلوكياتهم المنحرفة ومنها بطبيعة الحال التعاطى الذي يبدأ كنوع من المباهاة والمشاركة والمعايشة مع الصحبة المختارة ثـــم يتدرج الأمر إلى وضع الإدمان، ويؤدى ذلك إلى انصراف الشخصيات السوية وكفهم عن الـــتعامل معه فيزيده ذلك قرباً ممن لا يجد سواهم مهم المنحرفين ويصبح أكثر حرصاً ورغبة فـــي تركيز جواره ومعاملاته مع تلك الفئة المنحرفة التى تقبله وتتفق معه على ذات السلوكيات المنحرفة مما يزيد من عمليات تعاطيه للمواد المخدرة... وهكذا..

شكل (٢)

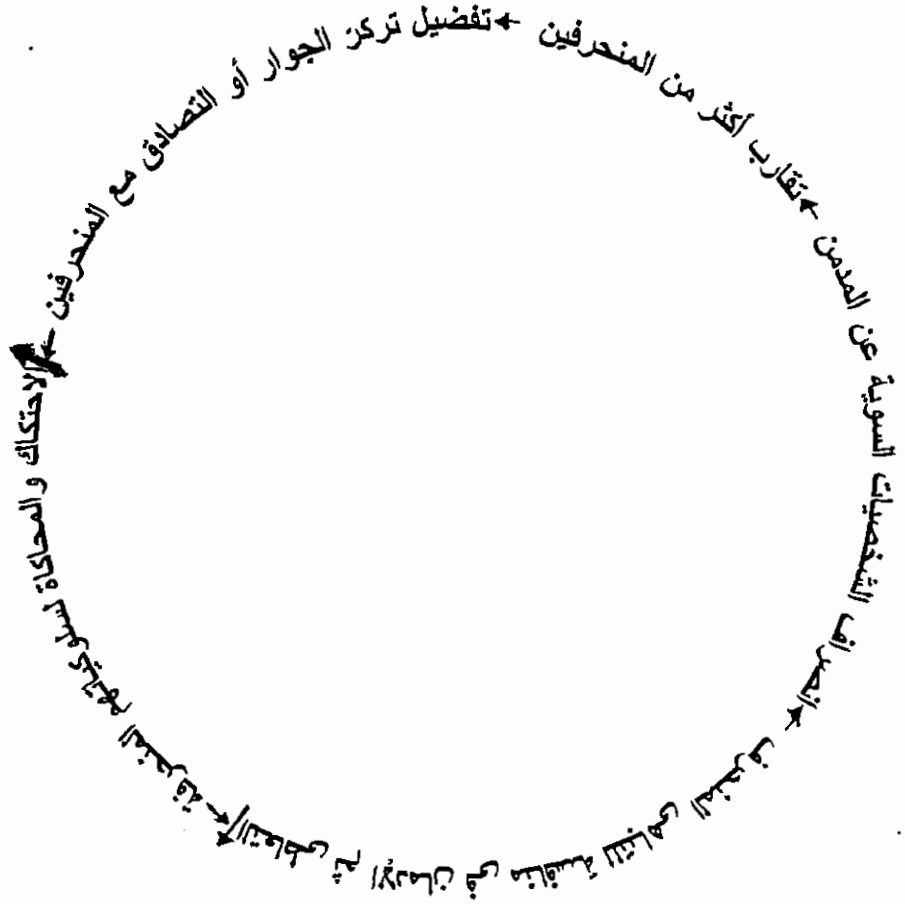

ثالثاً: دائرة التفكك الأسرى:

وهـــنا تتشـــابه دائـــرة التفكك الأسرى مع سابقتها نتيجة قيام كل منهما على ذات البعد الاجتماعي المتمثل في العلاقات الإنسانية مع الآخرين. وفي تلك الدائرة يلاحظ أن وجود تفكك أسرى يدفع بعض ضعاف الشخصية إلى الهروب المتكرر من المنزل وكأى شخص شريد فإن فـــرص مخالطته الوحيدة تكون مع فئة المنحرفين، وكما يتضح أعلاه، فإن ذلك يعنى محاكاتهم فـــي سلوكياتهم المنحرفة ومن أبرزها تعاطى المواد المخدرة بشكل متزايد ومتنوع، فيقع المرء في هوة الإدمان، ويضطر إلى سرقة ممتلكات الأسرة للتمكن من دفع ثمن ما يستهلكه من تلك الســـموم، وباكتشاف أمره (الذي لابد أن يحدث حتماً خاصة مع وضوح أعراض الإدمان) فإن المشـــاجرات تـــزيد معه مما يزيد من الجو المشحون الكريه داخل الأسرة فيندفع الفرد بشكل أقوى للهروب وهلم جرا.

شكل (٣)

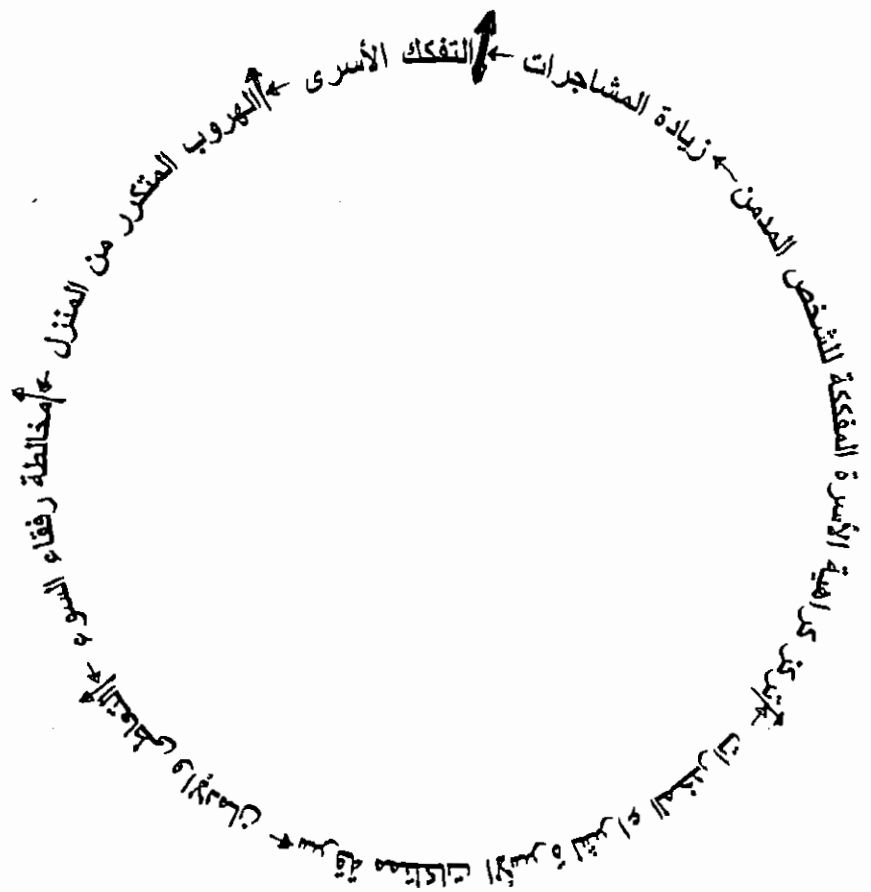

رابعاً: دائرة تبديد الموارد:

وفـــي تلك الدائرة تتضح أحد الأبعاد الاقتصادية الهامة حيث أن الإقبال لزراعة المواد المخـــدرة يـــؤدى إلى انخفاض المساحة المتاحة لزراعة المواد الغذائية والزراعية الخام التى تتطلـــبها عملـــيات التصنيع والاستثمار المختلفة، مما يضطر الدولة لزيادة وارداتها لمقابلة تلك الاحتـــياجات. وبالإضـــافة إلـــى تسرب العملات الصعبة، فإن ذلك يؤدى إلى تخفيض القدرة التمويلـــية للدولـــة الذي ينعكس على الطبقات المنتجة فيتقلص حجم الاستثمار ثم يتم الاستغناء عـــن جزء من العمالة، ومع ازدياد ظاهرة البطالة تزداد حركات الهروب النفسى للإدمان الذي يعـــنى زيـــادة الطلب على المواد المخدرة مما يحفز المنتجين المنحرفين على زيادة المساحات المنزرعة بتلك المحرمات والمهلكات، وهكذا دواليك.

شكل (٤)

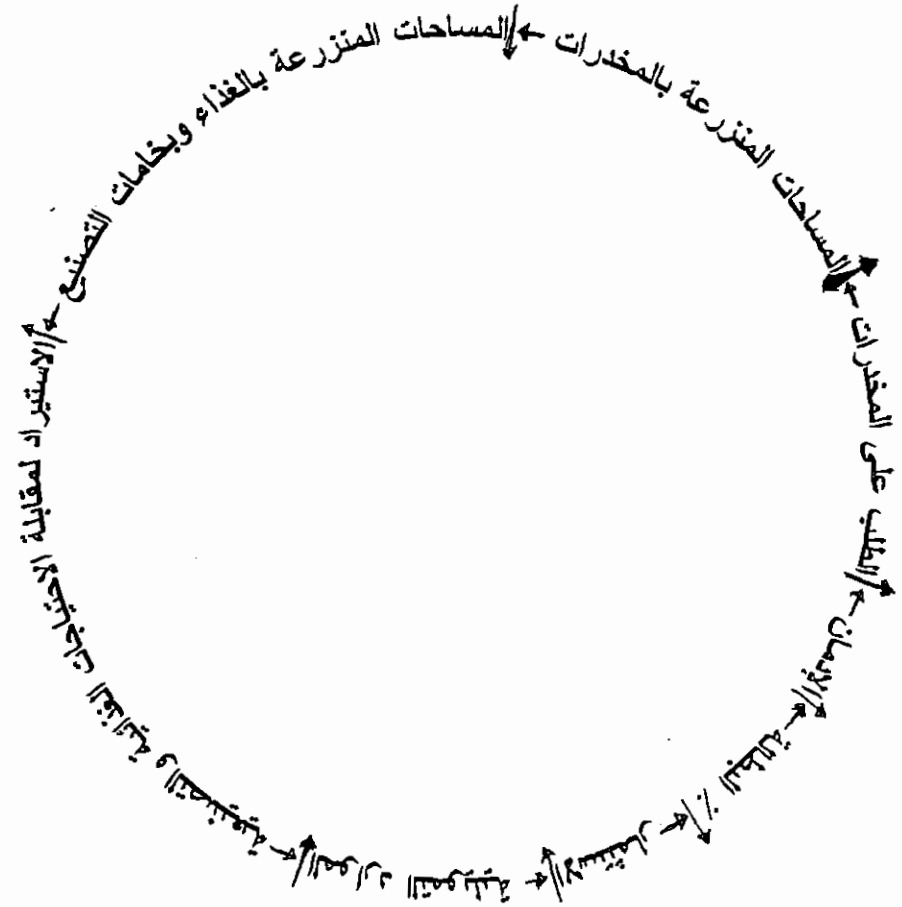

وعلـــى النحو السابق يمكن تكوين دوائر أخرى لا حصر لها مثل دائرة **ضعف الوازع الدينى** حيث أن الشخص غير الملتزم دينياً وأخلاقياً يكون أكثر عرضة للانحراف وتجربة كل المحـــرمات وخـــوض كـــل المـــتاح له من متع الدنيا متناسياً الأوامر الدينية المنظمة لحياته وأنشـــطته، وإذا كان المرء يجهل أو يتجاهل أحكام دينه فما من شك في أنه سوف يتهاون في احـــترام القوانيـــن الرســـمية المفروضة عليه كأحد مواطنى المجتمع، وستشجعه تلك الطبيعة الخارجـــة عـــن دنـــيا الفطرة والاستقامة على تعاطى المواد المخدرة بحثاً عن ملذات محرمة خادعـــة، وسوف يساعد ذلك على مخالطة لرفقاء السوء وخريجى السجون ومحترفى الجرائم، وبمـــزيد من المحاكاة والاحتكاك يصبح أكثر بعداً وعدم قدرة على اتباع أمور الدين والأخلاق وأكـــثر كـــرهاً وأقـــل التزاماً للقوانين الرسمية وتستمر خطواته في التباعد تباعاً عن السلوك المستقيم فيقل أكثر الوازع الدينى لديه ... وهكذا.

ومـــن الأمـــثلة الأخـــرى التى نود أن نختتم بها ذلك العرض الموجز دائرة **المصائب المـــتراكمة**، فمـــن الدوافـــع الـــتى تشجع المرء على التعاطى والإدمان وقوعه في مشكلة ما ومحاولـــة هروبه ونسيانه لتلك المشكلة المؤلمة بالانغماس في التعاطى الذي ينقله إلى خيالات واهمة لبرهة ثم يعود بعدها لمواجهة مشكلته الأصلية من جديد ولكن يكون ذلك بالإضافة إلى مجموعـــة أخرى من المشاكل المرتبطة بالإدمان مثل الصداع والأرق والاكتئاب والشجار مع الآخريـــن ... وتحـــدث كثـــير من الآثار السلبية المتداخلة التى تم الإشارة إلى أمثلة منها في الجزء السابق مما يؤدى في النهاية إلى تفاقم المشكلة الأصلية وتضخمها بتلك المشاكل الجديدة المـــتولدة مـــع التعاطى فيؤدى ذلك إلى مزيد من التعاطى، فمزيد من المشاكل الجديدة، فمزيد مـــن التضـــخم فـــي حجـــم ما يواجهه المتعاطى من مشاكل ولن تنتهى تلك العملية التضخمية التراكمية للمشاكل، بل إن نطاقها يمكن أن يتسع ليشمل أعداد أكبر من الأشخاص المنكوبين.

تـــرى مـــا الحل إذن لكى يتخلص ضحايا الإدمان من انتشاره من براثن تلك المشكلة الكـــؤود ومن آثارها الأخطبوطية المتفاقمة، وكيف يمكن فك إسار تلك الدوائر المهلكة؟ قبل أن ندلى بدلونا في سلة المقترحات والحلول، يفضل أولاً استكمال صورة تلك المشكلة المستعصية بالوقوف على جانبى العرض والطلب للمواد المخدرة كما سيتم في الجزئين التاليين.